

التاريخ الباهي في الدولة النابكية (بالموصل)

تأليف

علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري
(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ)

تحقيق

عبد الفتاح أحمد طليمات

ماجستير في التاريخ
كلية الآداب - جامعة عين شمس

ملترزم الطبع والنشر
دار الكتب الحديثة بالقاهرة
ومكتبة المثنى ببغداد

مقدمة

كتاب « التاريخ الباهر في الدولة الآتابكية » أحد كتب ابن الأثير التاريخية الهامة ، خصه بأخبار دولة إسلامية حاكمة ظهرت في النصف الغربي من دولة الخلافة العباسية ، أسسها عماد الدين زنكي ابن قسيم الدولة آقسنقر الحاجب بمدينة الموصل سنة ٥٢١ هـ ، (١١٢٧ م) وشملت في عهد ابنه نور الدين محمود ، الموصل ، الجزيرة ، والشام ، ومصر ، واليمن .

وقد اخترت تحقيق مخطوط الكتاب ودراسته ، ودراسة مؤلفه موضوعاً لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس . تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة .

وقد نوقشت الرسالة في اليوم العاشر من شهر يوليو عام ١٩٦٢ ، بمدرج المغفور له محمد شفيق غربال بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

وكانت لجنة المناقشة مكونة من : الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، رئيساً .

وعضوية :

الأستاذ الدكتور أحمد فكري ، أستاذ الآثار الإسلامية ، ورئيس قسم التاريخ بجامعة الاسكندرية .

والأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ التاريخ الإسلامي ، ورئيس قسم التاريخ بجامعة القاهرة (سابقاً) .

وقد أجازت اللجنة ، الرسالة بتقدير « جيد جداً » .

وقد حملت النسخة التي قدمت للمناقشة عنوان : « تاريخ الدولة الآتابكية — ملوك الموصل » وهو العنوان الذي اختارته له المكتبة الأهلية ببغداد — والمخطوط لا يحمل عنواناً — والمسجل بها تحت رقم : ٨١٨ من المجموعة العربية . غير اني رأيت أنه من الأوفق ، أن يحمل الكتاب العنوان الذي ذكره المؤلف في كتابه الآخر « الكامل في التاريخ » ، وهو العنوان الذي يحمله الكتاب الذي بين يدي القارئ الآن .

ولإني إذ أحمد الله جل شأنه ، لما وفقني إليه من النجاح فيما قمت به من عمل ، أتقدم بخالص الشكر إلى أستاذي الكبير ، الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، لتفضله بالموافقة على الإشراف على الرسالة ، ولما قدمه إليّ من توجيهات وتصويبات أثناء اشتغالي في تحضيرها .

كذلك أشكر السيد الدكتور عز الدين إسماعيل . مدرس النقد الأدبي بكلية الآداب بجامعة عين شمس لتفضله بمراجعة الشعر الوارد بالمخطوط ، وضبط أوزانه ، ونقوim أخطائه .

والله الموفق إلى سواء السبيل ؟

عبد القادر أحمد طيحات

مصر الجديدة : شهر شعبان ١٣٨٢
شهر يناير ١٩٦٣

المؤلف

ابن الأثير الجزري

(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٢ م)

اسم ولقبه : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب عز الدين .

مولده : ولد ابن الأثير بجزيرة ابن عمر ، من أعمال الموصل ، في اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٥٥ هـ (١) ، ثم انتقل والده به وبأخويه إلى الموصل في سنة ٥٧٩ هـ (٢) ، حيث أقاموا بها إقامة دائمة .

أسرته : وكان والد ابن الأثير موظفا عند ملوك الموصل منذ حكم عماد الدين زنكي ، وقد أخبرنا بهذا ، ابن الأثير وحده في ثنايا كتابه « الباهر » ، أما غيره من المؤرخين وأصحاب التراجم . فلم يهتموا بالترجمة له ، كذلك لم يتعرضوا له بالذكر حين ترجموا للمؤلف وأخويه .

وأول خبر ذكره ابن الأثير عن والده ، هو ما أورده في ترجمته لعماد الدين زنكي في « الباهر » حيث يذكر أن والده سار إلى قلعة جعبر في سنة ٥٤١ هـ ، حينما كان يحاصرها عماد الدين ، ونزل عنده الوزير جمال الدين — وزير عماد الدين — الذي كان يرافقه في الحصار ، ولما علم عماد الدين بوصوله ، أرسل إليه أحد غلمانه يسأله عن أخبار حصار قلعة « فنك » — وكان عسكر عماد الدين يحاصرها في نفس الوقت الذي كان عماد الدين يحاصر بنفسه قلعة جعبر — فأخبر الوالد ، الغلام بما يطمئن عماد الدين (٣) . ولم يذكر ابن الأثير شيئاً عن وظيفة والده في الدولة في تلك السنة ، غير أننا نرجح أنه كان عامل الوزير على جزيرة ابن عمر ، ويؤيد هذا الترجيح ، ما ذكره ابن الأثير في الخبر الخاص بالملك سليمان

(١) ابن خلكان (ج / ١ / ص ٤٣٨) .

(٢) اعتمدنا في تحديد هذا التاريخ لانتقال ابن الأثير إلى الموصل مع والده وأخويه على ما ذكره اليونيني في ذيل مرآة الزمان (ج / ١ / ص ٦٤) ، عن ضياء الدين — أخى ابن الأثير — بأنه ولد بجزيرة ابن عمر « وانتقل إلى الموصل مع والده في رجب سنة تسع وسبعين وخمسة » والمؤرخون يجمعون على أن والد ابن الأثير ، انتقل بأبنائه جميعاً إلى الموصل ، دون تحديد السنة ، وأقاموا بها .

(٣) أنظر ما يلي ، ص ٧٨ ، (من النص) .

شاه السلجوقي سنة ٥٥٥ ، ذلك أن قطب الدين مودودا صاحب الموصل ، كان قد قبض على الملك سليمان شاه وحبسه بالموصل ، فلما توفي السلطان مسعود بن محمد السلجوقي في سنة ٥٥٥ ، أرسل أمراء همدان إلى قطب الدين ، يطلبون منه إرسال سليمان شاه إليهم لكي يولوه سلطاناً عليهم خلفاً للسلطان مسعود ، فاتفق قطب الدين مع سليمان شاه ، على أن يكون سليمان شاه سلطاناً وقطب الدين أتابكاً له وجمان الدين وزيراً للسلطان ، ثم عزم جمال الدين على أن يجعل والد ابن الأثير نائباً عنه بالعراق الذي يتبع سلطة سليمان شاه ، ولكن المشروع كله فشل لأسباب ذكرها ابن الأثير في الخبر (١) .

كذلك يذكر ابن الأثير خبراً آخر عن والده ، ويندر فيه صراحة أنه كان يعمل في خدمة جمال الدين وزير الموصل وأنه كان نائباً عنه ، والخبر لا يحدد هذه النيابة . وإن كنا نرجح أنه كان نائباً عنه في جزيرة ابن عمر (٢) .

ثم يحدد الخبر الذي يذكره ابن الأثير عن والده في سنة ٥٦٥ ، في ترجمته لقطب الدين مودود صاحب الموصل ، أن والده كان يتولى رئاسة ديوان جزيرة ابن عمر وخزانتها (٣) . ثم لا يذكر ابن الأثير أكثر من هذا عن والده كوظف .

وكانت أسرة ابن الأثير على جانب من الثراء ، حيث يذكر المؤرخ أن أسرته كانت تملك عدة بساتين بقرية العقيمة من أعمال جزيرة ابن عمر (٤) ، كذلك كانت تملك قرية بأسفل الموصل يقال لها « قصر حرب » ويقول ابن الأثير ، إنه جمع أكثر مادة كسابه « الكامل في التاريخ » في دار لهم بهذه القرية (٥) .

كذلك كان والد ابن الأثير يشتغل بالتجارة إلى جانب وظيفته ، حيث يذكر المؤرخ خبر استيلاء الصليبيين — في سنة ٥٦٧ — على مراكب للمسلمين قادمة من مصر إلى الشام ، وكان لوالده فيها تجارة (٦) . ويذكر أيضاً في أخبار سنة ٥٨٨ ، أن الفرنج استولوا على قافلة برية للمسلمين بنواحي الخليل . وكان لابن الأثير — أو لوالده — تجارة في هذه القافلة فنهبت (٧) .

ولم يترجم ابن الأثير لوالده بعد وفاته ، لافي « الكامل » ولا في « الباهر » ، كذلك لم يترجم له أحد من المؤرخين أو أصحاب التراجم . ولذلك فنحن نجعل تاريخ وفاته ، غير أن ابن الأثير ، ذكر خبراً في « الباهر » يبين منه أنه كان موجوداً في سنة ٥٨٧ في الموصل ؛ وخلاصة الخبر أن عز الدين مسعودا ، صاحب الموصل ، حاصر جزيرة ابن عمر في هذه السنة ، وخرج معه مجد الدين أبو السعادات — أخو المؤرخ — فلما عاد عز الدين إلى الموصل ، أمر عسكره ألا يدخلوا المدينة ، وأن يعسكروا خارجها

- | | |
|---|---|
| (١) أنظر ما يلي ، ص / ١٤٧ ، (من النص) . | (٢) أنظر ما يلي ، ص / ١١٨ ، (من النص) . |
| (٣) أنظر ما يلي ، ص / ١٤٧ ، (من النص) . | (٤) أنظر ما يلي ، ص / ١٤٧ ، (من النص) . |
| (٥) الكامل ، ج / ٥ / ص / ٢٠ . | (٦) أنظر ما يلي ، ص / ١٥٥ ، (من النص) . |
| (٧) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٢٢٠ . | |

فنصب مجد الدين خيمته مع الجند ولم يدخل الموصل ، ولكن عز الدين صرح له بدخولها ، وقال له :
إن والدك أثير الدين له مدة مارآك ، ولا شك أنه اشتاكك (١) .

وكان عز الدين المؤرخ ، أوسط أخويه مجد الدين وضياء الدين سنا ، فقد ولد مجد الدين أبو السعادات
المبارك سنة ٥٤٤ هـ ، وولد عز الدين سنة ٥٥٥ هـ ، وأما ضياء الدين نصر الله ، فإنه ولد سنة ٥٥٨ هـ . وكان
أول المتوفين من الإخوة ، مجد الدين حيث توفي سنة ٦٠٦ هـ ، ثم تلاه عز الدين المؤرخ فتوفي سنة ٦٣٠ هـ ،
أما ضياء الدين فإنه توفي سنة ٦٣٧ هـ (٢) .

وقد اتجه كل من الإخوة الثلاثة إتجاها خاصا في حياتهم العلمية . فقد اختار مجد الدين العلوم
الدينية ، واختار ضياء الدين الأدب ، أما عز الدين فقد اختار التاريخ ، فاشتهر كل منهم في ميدانه ، فقد
نال مجد الدين شهرته في مؤلفاته في الحديث والتفسير والكتابة والرسائل ، واشتهر ضياء الدين بمؤلفاته
الأدبية وفي مقدمتها المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر . أما عز الدين فإنه اشتهر بمؤلفاته التاريخية ،
وفي مقدمتها كتابه « السكامل في التاريخ » .

وقد خدم كل من مجد الدين وضياء الدين الزنكيين وكبار موظفيهم . فقد كان مجد الدين كاتب الإنشاء
لمجاهد الدين قايمار وزير عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ثم تولى ديوان رسائل عز الدين مسعود
نفسه ، ثم ديوان ابنه نور الدين أرسلان شاه من بعده . ثم عرض له مرض منعه من الكتابة ، فأقام
في داره يغشاه الأكبر والعلماء ، وأنشأ رباطا بقربة « قصر حرب » ووقف أملاكة عليه وعلى داره
التي يسكنها بالموصل . وقد ألف كتبه كلها أثناء مرضه (٣) .

أما ضياء الدين ، فإنه وزير للملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي صاحب دمشق ، فأساء السيرة
حتى أثار عليه الناس فهموا بقتله . ولما خرجت دمشق من يد الأفضل ، التحق مجد الدين بخدمة الظاهر
غازي صاحب حلب ، ولكن لم يطل مقامه عنده وخرج مغاضبا له وسار إلى الموصل ، ولكن لم تطب
له الإقامة بها ، فرحل منها إلى إربل فلم يستقم حاله بها أيضا ، فرحل عنها إلى سنجار ، ولكنه لم يلبث
أن عاد إلى الموصل واستقر بها ، فالتحق بخدمة ملكها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود
بوظيفة كاتب الإنشاء ، وذلك سنة ٦١٨ هـ . ولما مات ناصر الدين محمود كتب لبدر الدين لؤلؤ بعد أن
آلت إليه الموصل . وفي سنة ٦٣٧ هـ سيره بدر الدين رسولا إلى خليفة بغداد فمات بها (٤) .

أما عز الدين المؤرخ فالراجح أنه لم يدخل في خدمة ملوك الموصل ، حيث أنه لم يذكر هو نفسه ،
ولم يذكر من ترجم له أنه شغل وظيفة ما . إلا أن ابن خلكان يذكر في ترجمته له ، أنه سافر لبعض ملوك الموصل
من الزنكيين إلى بغداد ، ولكنه لم يسم هؤلاء الملوك (٥) . أما ابن كثير ، فإنه يذكر في ترجمته لابن

(١) أنظر مايلي ، ص / ١٨٦ (من النص) . (٢) شذرات الذهب ، ج / ٥ / ص / ٢٢ / ١٣٧ / ١٨٧ .

(٣) ابن خلكان ، ج / ١ / ص / ٥٥٧ وما بعدها . (٤) ابن خلكان ، ج / ٢ / ص / ٢٠٨ .

(٥) ابن خلكان ، ج / ١ / ص / ٤٣٨ .

الآثير ، أنه وزر لبعض ملوك الموصل ، ولكنه لم يسم هؤلاء الملوك أيضا (١) . ولا شك أن هذا وهم من ابن كثير .

حياته : ولد ابن الآثير — كما ذكرنا من قبل — في جزيرة ابن عمر في اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٥٥ ، ثم انتقل إلى الموصل مع والده وأخويه في سنة ٥٧٩ ، أى وهو ابن أربع وعشرين سنة . ومعنى هذا ، أنه نشأ وربى وتلقى دروسه الأولى في جزيرة ابن عمر . والواقع أنه ليس لدينا معلومات عن طفولة ابن الآثير وصباه ومراحل تعليمه في صغره . فقد ضل ابن الآثير بالترجمة لنفسه ، كذلك ضل من ترجم له بتفاصيل نشأته ، وإن كان من المفروض أن والده اهتم بتعليمه وتعليم أخويه إهتماماً كبيراً ، ظهر أثره في نبوغ الإخوة الثلاث كل في ميدانه .

تعليمه : ومن الطبيعي أن يكون ابن الآثير قد حفظ القرآن في صغره ، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة . في أحد المكاتب حسب عادة أهل عصره . ولما شب عن الطوق ، انتقل إلى مرحلة الدراسة العميقة . فجلس إلى الشيوخ يتلقى عليهم العلم ، فدرس الحساب ، واللغة . والفقه ، والحديث . وعلّمه درس غير ذلك من العلوم ، كالأصول ، والفرائض ، والمنطق ، والهيئة ، والنجوم ، والقراءات ، فإن من شيوخه من كان يتقن أكثر من علم .

سيرة : وقد ترجم ابن الآثير لبعض شيوخه في كتابه « السكامل في التاريخ » ، ومن ترجم لهم : شيخه عبد الله بن سويده ، المتوفى سنة ٥٨٤ ، فقال عنه : « في هذه السنة توفى شيخنا أبو محمد عبد الله ابن عبد الله بن سويده التكريتي ، كان عالماً بالحديث ، وله تصانيف حسنة (٢) » .

وشيوخه ابن أفضل الزمان ، المتوفى سنة ٥٨٥ : « وفيها — في صفر — توفى شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان ، المعروف بابن أفضل الزمان ، بمكة . وكان رحمه الله عالماً متبحراً في علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه ، الأصولين ، والحساب ، والفرائض ، والنجوم ، والهيئة ، والمنطق ، وغير ذلك . وختم أعماله بالزهد ولبس الحشن ، وأقام بمكة حرسها الله تعالى مجاوراً فتوفى بها . وكان من أحسن الناس صحبة وخلقاً (٣) » .

وشيوخه ابن رواحه ، وقد قتل سنة ٥٨٥ في وقعة عكا ، فقد حضرها مع صلاح الدين الأيوبي ، فلما انهزم قلب جيش صلاح الدين من الصليبيين ، وصل الصليبيون إلى التل الذي عليه خيمة صلاح الدين وقتلوا من مروا به ، ونهبوا ، وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة ، منهم ، شيخنا جمال الدين أبو علي بن

(١) ابن كثير . ج ١٣ / ص ١٣٩ . (٢) السكامل ، ج ٩ / ص ١٩٨ .

(٣) السكامل ، ج ١٣ / ص ٢٠٥ .

رواحة الحموى ، وهو من أهل العلم ، وله شعر حسن ، وما ورث الشهادة من بعيد ، فإن جده عبد الله ابن رواحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله الروم يوم مؤتة (١) .

وشيوخه ابن صدقة ، المتوفى سنة ٥٩٣ هـ ، وفيها توفى شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن علي الفراتي الضرير ، الملقب الشافعي . كان إماماً في الفقه ، مدرساً صالحاً ، كثير الصلاح . سمعت عليه كثيراً ، لم أر مثله ، رحمه الله تعالى . ولقد شاهدت منه عجباً يدل على دينه وإرادته بعمله وجه الله تعالى . وذلك أني كنت أسمع عليه ببغداد سنن أبي عبد الرحمن النسائي — وهو كتاب كبير — والوقت ضيق ، لأنني كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة حرسها الله ، فبينما نحن نسمع عليه مع أخى الأكبر مجد الدين أبي السعادات ، إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد ، وقال له : قد برز الأمر لتحضر ، الأمر كذا ، فقال : أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت ، والذي يراودني لا يفوت . فقال : أنا لا أحسن أذكر هذا في مقابل أمر الخليفة . فقال : لا عليك ، قل ، قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع . فسألناه ليشى معه ، فلم يفعل ذلك وقال : إقرءوا ، فقرأنا . فلما كان الغد ، حضر غلام لنا وذكر أن أمير الحاج الموصل قد رحل ، فعظم الأمر علينا . فقال [الشيخ] : ولم يعظم عليكم العود إلى أهلكم وبلدكم ؟ فقلنا : لأجل فراغ هذا الكتاب . فقال : إذا رحلتُم أستمع دابة وأركبها ، فأسير معكم وأنتم تقرأون ، فإذا فرغتم عدت . ففضي الغلام ليتزود ونحن نقرأ ، فعاد وذكر أن الحجاج لم يرحلوا ، ففرغنا من الكتاب . فانظر إلى هذا الدين المتين ، يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه ، ويريد [أن] يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا (٢) .

وشيوخه ابن كليب الحراني ، المتوفى سنة ٥٩٦ هـ : « وفي هذه السنة — في ربيع الأول — توفى شيخنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحراني ، المقيم ببغداد . وله ست وتسعون سنة وشهران . وكان عالي الإسناد في الحديث . وكان ثقة صحيح السماع (٣) . »

وشيوخه ابن شبة النحوي ، المتوفى سنة ٦٠٣ هـ : « وفيها — في شوال — مات شيخنا أبو الحرم مكي ابن ريان بن شبة النحوي المقرئ بالموصل . وكان عارفاً بالنحو واللغة والقراءات ، لم يكن في زمانه مثله ، وكان ضريراً . وكان يعرف سوى هذه العلوم ، من : الفقه ، والحساب وغير ذلك معرفة حسنة . وكان من خيار عباد الله وصالحهم . كثير التواضع ؛ لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة إلى الصبح (٤) . »

وشيوخه ابن طبرزد ، المتوفى سنة ٦٠٧ هـ : « وفيها توفى شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد البغدادي ، وكان عالي الإسناد (٥) . »

وشيوخه الخطيب الطوسي ، المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ، في الوباء الذي انتشر في الموصل في هذه السنة ومات

(٢) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٣٩ .

(٤) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٩٠ .

(١) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٠٣ .

(٣) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٤١ .

(٥) الكامل ، ج ٩ / ص ٣٠٥ .

منه كثيرون ، « فممن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسي ، خطيب الموصل . وكان من صالحى المسلمين ، وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور (١) » .

وشيخه ابن العديم ، المتوفى سنة ٦٢٨ : « وفيها توفى القاضى ابن غنائم بن العديم الحلبي ، الشيخ الصالح . وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة والعاملين بعلمهم . فلو قال قائل ، إنه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان صادقا ، فرضى الله عنه وأرضاه ، فإنه من جملة شيوخنا . سمعنا عليه الحديث ، وانتفعنا برؤيته وكلامه (٢) » .

وكان ابن الأثير يذنب فرصة سفره إلى العراق والشام ، فيجتمع بشيوخها ويسمع منهم الحديث . فقد سمع ببغداد من عبد المؤمن بن كليب ، وعبد الوهاب بن سكيمة مسند العراق . وسمع بدمشق من القاسم بن صصرى مسند الشام وزين الأمان بن عساكر .

وكان ابن الأثير محل تقدير وثناء من عرفه من معاصريه ومن جاء بعده واستفاد من مؤلفاته . فمن معاصريه ابن خلكان وسبط ابن الجوزى . أما ابن خلكان ، فقد كان على اتصال وثيق به ، وسبب ذلك أن والده — والد ابن خلكان — كان صديقا لابن الأثير ، لذلك كان ابن الأثير يكرم ابن خلكان ويقربه إليه . يقول ابن خلكان عن ابن الأثير ، إنه « كان إماما فى حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به ، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة . وخبراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم » . ويقول أيضاً : « وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها » . ويذكر أنه اجتمع بابن الأثير فى حلب سنة ٦٢٦ ، وقد كان ابن الأثير ضيفاً على الطواشى شهاب الدين طغرل الخادم أتابك الملك العزيز بن الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان طغرل كثير الإقبال على ابن الأثير حسن الاعتقاد فيه ، مكرماً له . يقول ابن خلكان ، إنه لما اجتمع بابن الأثير عند طغرل وجسده « رجلاً مكهلاً فى الفضائل وكرم الأخلاق ، وكثرة التواضع ، فلازمت التردد إليه ، وكان بينه وبين الوالد — رحمه الله تعالى — مؤانسة أكيدة فكان بسببها يبالغ فى الرعاية والإكرام (٣) » .

وأما شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزى ، فإنه لم يترجم له بالرغم من أنه نقل عنه فى كتابه « مرآة الزمان » غير أنه كان يقدره ويلقبه بالأستاذ ، فهو حين ينقل عنه خبر وفاة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، يقول : « وذكر الأستاذ الجزرى فى تاريخه (٤) » .

ويصفه ابن كثير بأنه « الإمام العلامة » ، ويقول ، إنه أقام بالموصل فى آخر عمره ، « موقراً معظماً إلى أن مات (٥) » .

ويقول عنه الذهبي ، « كان صدراً معظماً كثير الفضائل (٦) » .

(١) الكامل ، ج ٩ / ص ٣٦٤ . (٢) الكامل ، ج ٩ / ص ٣٨٧ .

(٣) ابن خلكان ، ج ٢ / ص ٤٣٨ . (٤) مرآة الزمان ، ج ٨ / ص ٣٢٠ .

(٥) ابن كثير ، ج ١٣ / ص ١٣٩ . (٦) شذرات الذهب ، ج ٥ / ص ١٢٧ ، عن « العبر » للذهبي .

ويقول عنه ابن العباد الحنبلي : « كان إماماً ، نسابه ، مؤرخاً ، إخبارياً ، أدبياً ، نبيلاً ، محتشماً (١) » .

وفاته :

وقد توفي ابن الأثير في شهر شعبان من سنة ٦٣٠ هـ ، وهو المشهور (٢) . غير أن بعض المؤرخين يشذ عن ذلك ، مثل : السبكي ، فيذكر أنه توفي في شهر رمضان من السنة (٣) . وأبو شامة يذكر أنه توفي في شعبان سنة ٦٣١ هـ (٤) .

مؤلفاته :

سبق أن ذكرنا أن ابن الأثير اتجه الوجهة التاريخية في حياته العلمية . ونرجع السبب في هذا إلى ما كان يسمعه من أبيه في شبابه من أخبار الزنكيين ، حيث يذكر في مقدمة كتابه « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » ، أن والده كان يحدثه عن أخبار الموصل وملوكها من بني زنكي ، وما نلاحظه من كثرة النقل عن والده في هذا الكتاب ، ولا شك أن القصص التاريخية قد استهواه ، فأكب على قراءة كتب التاريخ ، حتى إذا بلغ المرحلة التي يجب عليه فيها أن يحدد اتجاهه العلمي ، اختار التخصص في علم التاريخ والتأليف فيه ، يدلنا على هذا ، مؤلفاته التي تركها في المكتبة الإسلامية ، فبالرغم من أنه بلغ درجة الإمامة في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به ، كما يقول ابن خلكان (٥) ، فإنه لم يعن بالتأليف في علم الحديث ، أو في غيره من العلوم التي درسها ، بينما مؤلفاته المعروفة لدينا كلها في التاريخ .

يقول في مقدمة كتابه « السكامل في التاريخ » : « أما بعد . فإنني لم أزل محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مؤثراً للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافئها ، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها . . . » . فابن الأثير يصرح بحبه للتاريخ ، وميله إلى المعرفة ، وهذا ما حداه إلى الاتجاه الوجهة التاريخية .

ترك ابن الأثير في المكتبة التاريخية الإسلامية أربع كتب ، هي :

١ — اللباب في تهذيب الأنساب .

٢ — أسد الغابة في معرفة الصحابة .

٣ — السكامل في التاريخ .

٤ — التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل) .

ومن أسماء هذه الكتب ، نرى أن ابن الأثير قد اهتم بالتاريخ بفروعه المختلفة ، اهتم بالتاريخ العام

(٢) ويحدد ابن العلاء الحنبلي في شذرات الذهب ، ج ٥ / ٥

(٣) طبقات الشافعية ، ج ٥ / ص ١٢٧ .

(٥) ابن خلكان ج ١ / ص ٤٣٨ .

(١) شذرات الذهب ، ج ٥ / ص ١٣٧ .

ص ١٣٧ ، أنه توفي في الخامس والعشرين من الشهر .

(٤) الذيل على الروضتين ، ص ١٦٢ .

الممثل في « الكامل في التاريخ » ، وبالتراجم الممثل في « أسد الغابة » ، وبالأنساب الممثل في « اللباب » .
كذلك اهتم بالتاريخ الخاص ، فأرخ لإحدى الأسر الحاكمة في الاسلام ، وهي أسرة بني زنبكي في كتاب
« التاريخ الباهر » ، فجمع بذلك علم التاريخ كله ، فأحسن فيه وأجاد ، وحاز ثقة من جاء بعده من
المؤرخين القدامى ، ومن المهتمين بالدراسات التاريخية الإسلامية من المحدثين .

ولابن الأثير كتاب آخر لا يمت إلى التاريخ بصلة ، عنوانه « تحفة العجائب وطرفة الغرائب » (١)
وأحسب أن ابن الأثير أراد أن يرفه عن نفسه بتأليفه هذا الكتاب ، فجمع فيه ما استرعى انتباهه من
قراءاته المختلفة . يقول في مقدمة الكتاب إنه ذكر فيه « ما أظهرته الحكمة الإلهية ، وما أبدعته القدرة
الربانية من عجائب مخلوقات ، وغرائب الموجودات ، وطرزتها من ملح الأجناد (الأخبار ؟)
ونوادر الأشعار » .

اللباب في تهذيب الأنساب :

كتاب « الأنساب » الذي هذبه ابن الأثير ، هو لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني
المروزي ، من رجال القرن السادس ، فقد توفي سنة ٥١٠ . فقام ابن الأثير على تهذيبه واختصاره ،
وقد ذكر سبب إقدامه على هذا العمل في مقدمة الكتاب ، فقال بعد أن مدح الكتاب وأشاد بالسمعاني
وعمله ، أن السمعاني « قد أطال واستقصى حتى خرج عن حد الأنساب وصار بالتواريخ أشبه ، ومع
ذلك ففيه أوهام » فشرع هو في « اختصار الكتاب والتنبيه على ما فيه من غلط وسهو » . ثم ذكر
بمجهودده وعمله في التهذيب بالتفصيل .

أسد الغابة في معرفة الصحابة :

وهذا الكتاب ، كما يدل عليه عنوانه ، تراجم للصحابة والصحابييات الذين صحبوا النبي في حياته .
وقد ذكر في مقدمة الكتاب سبب تأليفه ، فقال : إنه لم يعجبه من ترجم للصحابة غير أبي عبد الله
ابن منده الأصفهاني ، وأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، والأمام أبي عمر بن عبد البر القرطبي ،
غير أن كلا منهم سلك طريقا يختلف عن الآخر ، وذكر بعضهم أسماء لم يذكرها صاحبه ، فرأى أن
يجمع بين هذه الكتب وأن يضيف إليها ما شذ من كتاب أبي علي الغساني ، الذي استدرك فيه على كتاب
ابن عبد البر . ثم ذكر طريقته في الجمع واستدراكاته في مقدمة طويلة .

الكامل في التاريخ :

عن طريق هذا الكتاب نال ابن الأثير شهرته كمؤرخ من مؤرخي القرن السادس باعتبار مولده

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم : ٤٩٩ جغرافيا .

وباعتبار مدة نصف القرن الذي عاشه فيه ، ومن رجال القرن السابع باعتبار وفاته وباعتبار مدة ثلث القرن الذي عاشه فيه . والواقع أن ابن الأثير قد أحسن في تأليف هذا الكتاب ، فقد جمع فيه أخبار العالم الإسلامي شرقه وغربه وما بينهما ، وهذا ما لم يسبقه إليه أحد .

يقول ابن الأثير في مقدمة كتابه ، إن من أسباب تأليفه الكتاب ، أنه وجد من سبقه من المؤرخين ، أن « الشرق منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب ، والغربي قد أهمل أحوال الشرق ، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخا احتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب متعددة ، مع ما فيها من الإخلال والإملا . فلما رأيت الأمر كذلك ، شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ، ليسكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان ، وآتي فيه بالحوادث والكائنات ، من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضا إلى وقتنا هذا » أي حتى سنة ٦٢٨ .

التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية :

وهذا الكتاب الذي أعدناه للنشر ، ألفه ابن الأثير عن دولة أقامتها أسرة من الأسرات الحاكمة في الإسلام ، هي أسرة عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر الحاجب ، والتي يطلق عليها ابن الأثير ، « الدولة الأتابكية » ، نسبة إلى لقب « أتابك » (١) الذي أطلق على عماد الدين — مؤسس الدولة — بعد أن ولي إمرة الموصل سنة ٥٢١ .

قدم ابن الأثير كتابه بمقدمة أظهر فيها علاقة أسرته الوثيقة بملوك الموصل ، ولخص فيها جهادهم للصليبيين ، ثم ذكر سبب تأليفه الكتاب .

ثم بدأ بسرد أخبار الدولة فبدأ بقسيم الدولة آقسنقر — والد عماد الدين زنكي — فذكر صلته بالسلطان السلجوقي ملكشاه ، وولايته على حلب من قبله ، واشترأك في مشاكل الأسرة السلجوقية بسبب التنافس على السلطنة بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ . ثم ذكر مقتل قسيم الدولة سنة ٤٨٧ ، في حرب منافسة بينه وبين تاج الدولة تنش السلجوقي صاحب دمشق . وختم ابن الأثير أخبار قسيم الدولة بترجمة له ، أظهر فيها حسن سياسته في حلب وعدالة حكمه :

ثم تناول أخبار عماد الدين زنكي — الابن الوحيد لقسيم الدولة — منذ مقتل والده حتى وفاته سنة ٥٤١ ، فذكر رعاية أصحاب أبيه له ونشأته تحت رعايتهم ، فقد كان عماد الدين في نحو العاشرة من عمره حين توفي أبوه . ثم استقلاله بنفسه لما أن اشتد ساعده ، والتحقاق بخدمة أمراء الموصل ، واشترأك معهم في حروبهم المحلية وحروبهم ضد الصليبيين ، ثم انتقاله إلى خدمة السلطان محمود السلجوقي ، وولايته شحنسكية واسط والبصرة وبغداد ، ثم بعد ذلك ولايته على الموصل سنة ٥٢١ . وهنا يأخذ ابن الأثير في تفصيل الخطوات التي اتبعتها عماد الدين لتكوين دولة تحمل اسمه ، تضم بعض

(١) أنظر معنى لقب « أتابك » فيما يلي من النص ، ص / ١٨ / حاشية / ٨ .

إمارات الجزيرة والشام . كذلك ذكر الأخبار التي تشير إلى الصعوبات التي اعترضت طريقه أثناء تكوين دولته ، والتي تتمثل في الخليفة العباسي ، والسلطان السلجوقي ، وأمراء الجزيرة والشام المسلمين ، ثم الصليبيين . وقد أفاض ابن الأثير في سرد حروب عماد الدين ضد الصليبيين وجهوده في استرداد كثير من البلاد التي استولوا عليها ، سواء في الجزيرة أو في الشام .

ثم تناول ابن الأثير انقسام الدولة بعد وفاة عماد الدين سنة ٥٤١ هـ ، بين ولديه سيف الدين غازي الذي ملك الموصل والجزيرة ، ونور الدين محمود الذي استقل بحلب وتوابعها بالشام .

دون ابن الأثير أخبار سيف الدين غازي بن عماد الدين ، وكان عهد سيف الدين قصيرا (٥٤١ - ٥٤٤) ، ومن أبرز أعماله ، أنه منع خلافا خطيرا كاد أن يقع بينه وبين أخيه نور الدين . ثم إنه حافظ على أملاك الدولة بالجزيرة من الطامعين بها من أمراءها ، ثم كان له الأثر الكبير في منع سقوط دمشق في يد امبراطور الروم الذي حاصرها مع الصليبيين سنة ٥٤٣ هـ .

ثم سرد ابن الأثير أخبار قطب الدين مودود ، الذي خلف أخاه سيف الدين على الموصل (٥٤٤ - ٥٦٥) . فذكر الخلاف الذي حدث بينه وبين أخيه نور الدين بسبب مدينة سنجار والذي انتهى بالصالح بينهما . ثم ذكر مشروع سلطنة سليمان شاه السلجوقي على همدان ، وتعيين قطب الدين أتابكا له ومديرا لشؤون سلطنته وفشل هذا المشروع . كذلك سرد خبر النزاع على ملك الموصل بين ولدي قطب الدين أثناء مرضه ، وأثر نفوذ رجال الدولة في هذا النزاع ، الذي انتهى بملك ابنه سيف الدين غازي (الثاني) سنة ٥٦٥ هـ .

كذلك تناول ابن الأثير أخبار نور الدين محمود (٥٤١ - ٥٦٩) . فذكر استيلاءه على حلب بعد وفاة أبيه ، وجهاده للصليبيين . واسترداده بعض البلاد الإسلامية منهم . كذلك ذكر استيلاءه على دمشق سنة ٥٤٩ هـ ، ومصر سنة ٥٦٤ هـ ، والموصل سنة ٥٦٦ هـ . كذلك تحدث عن الخلاف الذي نشب بين نور الدين وصالح الدين بعد أن حل صالح الدين محل عمه أسد الدين شيركوه في مصر ، لاختلاف وجهات النظر بينهما في حرب الصليبيين .

ثم ذكر ابن الأثير أزمة الاستخلاف التي حدثت في البيت الزنكي بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ . بسبب صغر سن الصالح إسماعيل ، الابن الوحيد لنور الدين ، والتي آلت الدولة بسببها إلى صلاح الدين الأيوبي . ماعدا الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر .

وفي الفترة ما بين سنتي ٥٦٩ و ٦٠٧ هـ ، أرخ ابن الأثير لملوك الموصل تأريخا مختصرا ، ذكر فيه أخبار سيف الدين غازي (الثاني) بن قطب الدين مودود الذي استمر حكمه حتى سنة ٥٧٦ هـ ؛ وأخبار عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود الذي خلف أخاه سيف الدين ، وقد ظل يحكم الموصل حتى وفاته سنة ٥٨٩ هـ وكذلك أخبار نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود ، ودام حكمه إلى سنة ٦٠٧ هـ .

فدون أخباراً قليلة عن علاقتهم بصلاح الدين وخلفائه ؛ وكانت علاقة تتأرجح بين الخصومة والود .
ثم ذكر ملك القاهرة مسعود بن نور الدين أرسلان شاه سنة ٦٠٧ .

وختم ابن الأثير أخبار كل ملك من ملوك الأسرة الزنكية بترجمة له ، فصل فيها أخلاقه ومآثره ،
وما أفادته الموصل في عهده .

كذلك ترجم ابن الأثير لبعض كبار رجال الدولة من الوزراء والقواد ؛ وأبرز في هذه التراجم ،
أثر بعضهم في نشأة الدولة وارتقاءها ، وأثر بعضهم الآخر في إضعافها .

ملاحظات على « الباهر » :

وهناك بعض ملاحظات على ابن الأثير في كتابه « الباهر » .

فقد ترجم لبعض الشخصيات التي لا تمس موضوع الكتاب إلا مساً خفيفاً ، مثل ترجمته للطغرائي ،
ونظام الملك ، وسليمان بن قتيلش ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان .

ولم يدون ابن الأثير أخبار الصراع بين الزنكيين — خلفاء نور الدين — وبين صلاح الدين وخلفائه ،
وسبب ذلك أن أخبار هذا الصراع ، تظهر ضعف الزنكيين أمام صلاح الدين وخلفائه ، وهزائمهم في
حروبهم معهم ، كذلك تثبت أخبار الصراع ، خضوع الزنكيين لصلاح الدين وخلفائه خضوعاً تاماً ،
فتجنب ابن الأثير إثبات هذه الأخبار التي تجرح أصحابها ، لئلا يخذش كبرياء الملك القاهرة الذي ألف له
الكتاب ، واكتفى بإحالة القارئ إلى كتابه الكبير « السكامل في التاريخ » ، ويسميه في « الباهر » ،
« المستقصى في التاريخ » .

كذلك خرج في بعض الحوادث على مبدأ الحيادة الذي اتبعه في كتابه الآخر ، ففي « السكامل »
فسر هذه الحوادث من واقعها وعلى وجهها الصحيح ، بينما فسرهما في « الباهر » تفسيراً مخالفاً ، لإرضاء
للملك القاهرة . مثال ذلك ، الخبر الذي ذكره في « الباهر » ، عن قصد ديبس بن صدقة بغداد سنة ٥١٦ ،
وخبر حصار عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود — جد الملك القاهرة — جزيرة ابن عمر . وخبر
حصار الملك العادل الأيوبي مدينة سنجار سنة ٦٠٦ .

وضغط ابن الأثير بعض الأخبار في « الباهر » ضغطاً كبيراً ، فجاءت قليلة التفاصيل ، وإن كان
قد حرص على إحالة القارئ إلى كتابه « السكامل » ، للإستزادة من تفاصيل الخبر .

وللملاحظة الأخيرة ، وجود اختلافات في تواريخ بعض الحوادث والأخبار بين « الباهر »
و « السكامل » ، أشرنا إليها في حواشي المخطوط .

وابن الأثير ، وإن كان ذكر أخبار الزنكيين ورجال دولتهم في كتابه الكبير « الكامل » . إلا أنه في كتابه « الباهر » قد أمدنا بمعلومات قيمة لم يذكرها في « الكامل » ، فهو قد أعطانا معلومات عن مصير عماد الدين بعد مقتل والده وتنقله في خدمة أمراء الموصل واشتراكه معهم في حروبهم منذ صغره ، ومن ذلك عرفنا سر نجاحه الحربى والمدنى . كذلك أمدنا بمعلومات عن كيفية نجاحه في تكوين دولته وسياسته الحازمة في حكمه .

كذلك أمدنا بمعلومات قيمة عن حياة نور الدين الخاصة والعامة لم يذكرها في « الكامل » ، بحيث أصبحت شخصية نور الدين واضحة المعالم للباحث والدارس .

وقد تخللت تراجم الزنكيين وكبار رجال دولتهم معلومات ، لم ترد في « الكامل » ، عن النظم الزنكية وعن جهودهم في تحسين أحوال الموصل الداخلية ، في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعلمية .

كذلك أبدع ابن الأثير في وصفه المعارك التي دارت بين الصليبيين وبين كل من عماد الدين ونور الدين وإبراز الجهود الضخمة التي كان يبذلها كل من الزنكيين والصليبيين من ناحية الاستعداد للعمليات الحربية ، واستماتة كل من الفريقين في القتال . والكتاب بعد ذلك ، يعد مكمل لما ينقص من أخبار الزنكيين في كتاب « الكامل في التاريخ » .

أسلوب ابن الأثير في « الباهر » :

كتب ابن الأثير كتابه « الكامل » بأسلوب المؤرخ الذى تهمة المادة التاريخية أكثر مما تهمة البلاغة والأساليب البيانية ، فهو في « الكامل » يسرد حقائق بعبارات موجزة ؛ بينما جمع في « الباهر » بين المؤرخ والأديب فاستعمل السجع بتوسع كبير . وذلك لى يتييسر له الوصف المؤثر في المناسبات الخطيرة ، مثل وصفه المعارك التي دارت بين الصليبيين وبين عماد الدين ونور الدين ، وغير ذلك من المناسبات ، فنجد مثلاً أنه افتتح كتابه بمقدمة مسجوعة ، وختمه أيضاً بخاتمة مسجوعة .

ويستشهد ابن الأثير بالشعر في كثير من المناسبات وللإشادة بالزنكيين ، بعضه لشعراء معاصرين للزنكيين مثل : محمد بن نصر بن صغير بن عبد الله القيسرانى ، وسعد بن محمد المعروف بالحيص بيص ، وأحمد بن منير الطرابلسى . وبعضه لشعراء غير معاصرين كأبي تمام ، كذلك استشهد بأبيات من الشعر لم نستطع الاهتداء إلى أصحابها .

كذلك يضرب ابن الأثير الأمثال في بعض المناسبات ، وذلك عند سخريته بالصليبيين وهزائمهم من المسلمين . ففي سنة ٥٦٥ حاصر الصليبيون دمياط للاستيلاء على مصر ؛ ولكنهم هزموا هزيمة منكرة ، ورجعوا إلى بلادهم ، فيسخر منهم ابن الأثير ، فيقول : « وهذا موضع المثل ، ذهب النعمة تطلب قرنين فعاتت بلا أذنين » . وفى سنة ٥٦٧ ، استولى الصليبيون على مركبين تجاريين للمسلمين برغم

الهدنة التي بينهم وبين نور الدين ، فطلب نور الدين منهم ردهما ، فأبوا ، فأغار نور الدين على حصن عرقة — وهو لهم — وخربه ، واستولى منهم على « صافيتا » و « العريمة » ، عندئذ أعادوا المركبين وطلبوا من نور الدين تجديد الهدنة ، فقال ابن الأثير ساخرا بهم : « فكانوا في ذلك كما يقال : اليهودى لا يعطى الجزية حتى يلطم . وكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها » .

مصادره :

ذكر ابن الأثير في مقدمة الكتاب ، أنه اعتمد في مادته على ما سمعه من والده ، وقد أكثر من الرواية عنه . غير أنه ذكر مصادر أخرى رجع إليها — وإن كان رجوعه إليها في مناسبات قليلة — مثل : « تاريخ دمشق » لابن عساكر (١) ، « أخبار حلب » لابن العديم (٢) ، والعماد السكاتب من بعض مصنفاته (٣) . كذلك نقل عن بعض الشخصيات المعاصرة للحوادث ذكر أسماء بعضها وأهمل ذكر بعضها الآخر فضلا عن أن مادة الكتاب ، هي نفس مادة كتاب « الكامل » مع فارق واحد هو فارق الأسلوب الذي تحدثنا عنه من قبل (٤) .

المخطوطة :

مخطوطة « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » نسخة وحيدة ليس لها أخت ، وهي موجودة بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٨١٨ من المجموعة العربية بعنوان : « تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل » . وقد أحضرت النسخة ميكروفيلم من باريس ، فوجدت أن المخطوطة لا تحمل عنواناً ، وقد جاء عنوانها عند مؤلفها ابن الأثير — في كتابه الآخر « الكامل في التاريخ » ، في عدة مواضع منه ، هكذا : « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » ، « الباهر » ، « الباهر في أخبار دولتهم » (٥) ، فاعتمدنا نحن العنوان الكامل ، الذي ظهرت به الطبعة التي بين يدي القارئ . كذلك لا تحمل المخطوطة اسم المؤلف ، غير أن هذه الصعوبة أمكن التغلب عليها حيث يوجد بالمخطوطة ما يؤكد إلى أن مؤلفها هو ابن الأثير ، حيث يشير في أماكن منها إلى والده وإلى أخيه مجد الدين أبي السعادات ، وإلى كتابه « الكامل في التاريخ » .

وتقع المخطوطة في ٤٦١ صفحة ، وتحتوي كل صفحة على ثلاثة عشر سطرا ، ويختلف عدد السكاتب في السطور ، ما بين سبع وعشرة كلمات .

(١) س/ ٨٩ (من النص) . (٢) ص/ ١٢٦ (من النص) . (٣) ص/ ١٧٤ (من النص) .
(٤) بعد التحقق بحثا مستفيضا عن ابن الأثير ، مع دراسة مؤلفاته ومنها « الكامل في التاريخ » وتحديد مصادره .
(٥) الكامل في التاريخ ، ج ٨ / ص ٣٠٩ / ٣١٠ ، ج ٩ / ص ١٣ / ١٤ / ١٢٥ .

والخط الذى كتب به نسخ ظاهر جميل فى مجموعه .

والأخطاء الإملائية كثيرة ، وأكثر منها ، الأخطاء الناتجة عن عدم دقة الناسخ فى تنقيط الحروف .

ولا يعترف الناسخ بحرف « الألف » لفعل الجمع ، مثل : ضربوا ، حاصروا ، نزلوا ، إلا فى حالات قليلة جدا ، فأضفناها نحن ، ولم نشر إليها فى الحواشى لكثرتها .

وحرف « التاء » له عند الناسخ أمر عجيب ، فهو يصر على كتابتها مفتوحة فى حين يجب كتابتها مربوطة ، مثل : مدينة ، فيكتب اللفظ : مدينث . ويكتبها مربوطة ، فى حين يجب كتابتها مفتوحة ، مثل : (نهر) الفرات ، فيكتب اللفظ : الفرة .

كذلك يطيب له أحيانا أن يقلب حرف الضاد ، ظاء ، مثل : غضنفر ، فيكتب اللفظ : غظنفر . وأن يقلب حرف الظاء إلى حرف الضاد ، مثل : المظفر ، فيكتب اللفظ : المضفر .

كذلك اتبع طريقة عصره وعصر من سبقه فى إهمال إثبات الهمزة ، سواء كانت فى أول الكلمة أو وسطها أو فى آخرها ، مثل : تتضاءل ، استئصال ، دماءنا ، أعداء . فيكتبها : تتضال ، استيصال ، دمانا ، أعدا . وهو إذ يهمل الهمزة فى موضعها ، فإنه يضعها فى غير محلها ، مثل : بنو ، لا . فيكتبها : بنوء ، لاء .

فقمنا نحن على تهذيب النص من هذه العيوب ، ولكن لم نشر إليها كلها فى الحواشى لكثرتها بحيث إذا أشرنا إليها كلها ترحم النص .

كذلك لم يوحد الناسخ الرسم الهجائى لأسماء بعض الأعلام والأماكن ، مثل : بزان ، سلجوق ، كربوغا ، الرها . فيكتبها أيضاً : بوزان ، سلجوق ، كربوقا ، الرها (بدون همزة) وقد أثبتنا الأسماء كما هى فى النص ، لأن المؤرخين القدامى ، استعملوا كلا الرسمين .

وقد يسقط من الناسخ لفظ عند النسخ ثم يتنبه له فيكتبه بين السطور بخط دقيق ، أو فى هامش الصفحة ، وقد يخطئ فى كتابة كلمة فيمحوها ويكتبها صحيحة .

وفى المخطوطة بياض فى أماكن قليلة متفرقة منها ، وقد أشرنا إليه فى حواشى النص . ولا نستطيع الجزم عما إذا كان البياض من الناسخ بسبب عدم استطاعته قراءة ما فى مكانها ، أو أنه من ابن الأثير نفسه . وقد استطعنا ملء بعض هذا البياض ، ولم نوفق إلى بعضه الآخر ، برغم رجوعنا إلى مراجع أخرى .

وقد رجعنا فى تقويم النص ، إلى المراجع التى نقل أصحابها من النص الأصيل الذى لم نعر عليه بعد ، مثل : « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، لأبى شامة ، « وفيات الأعيان » ، لابن خلكان ، « الكواكب الدرية فى السيرة النورية » ، لابن قاضى شهاب . غير أننا اعتمدنا اعتماداً تاماً على أبى شامة ، لأنه أكثر

من غيره نقلا من « النص » ونقوله منه أطول من غيره . وقد لاحظنا أن هناك اختلافا كبيرا بين ألفاظ مخطوطنا وبين ألفاظ أبي شامة وابن قاضي شعبة ، مما يدل على أن الناسخ تصرف تصرفا كبيرا أثناء نسخه ، ولو رمنا استبدال ألفاظ مخطوطنا بما في « الروضتين » و « الكواكب » لأصبح لدينا نسخة تختلف كثيرا عن النسخة الحالية ، وقرينة جدا من نسخة ابن الأثير الأصلية .

وقد احتاج « النص » لإضافة بعض الألفاظ وذلك لتقويم بعض العبارات ، فأضفناها من المراجع التي نقلت عن « النص » الأصلي أو من نسخة « دى سلاين » — التي سوف نتحدث عنها فيما بعد — أو اجتهدا منا ، ووضعنا اللفظ بين الحاصرتين [] ، للدلالة على أنه إضافة ، وأشرنا في الحاشية إلى المراجع الذي أضفنا اللفظ منه .

أما تحقيق الأخبار ، فقد رجعنا إلى كتاب المؤلف الآخر « الكامل في التاريخ » لأن مادة الأتابكة — كما ذكرنا من قبل — هي نفس مادة « الكامل » ، مع الاستعانة بالمراجع التي أشرنا إليها في الحواشي .

التاريخ الباهر والطبعة الفرنسية :

اهتم الفرنسيون بنشر المخطوطات العربية التي أرخت للحروب الصليبية في مجموعة أطلقوا عليها اسم : مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الشرقيين .

Recueil Des Historiens Des Croisades. Historiens Orientaux.

ونخطة المجموعة في النشر ، هي طبع النص العربي ، مع ترجمة له باللغة الفرنسية . وقد طبع « التاريخ الباهر » في هذه المجموعة — وهو الجزء الثاني منها — بعنوان : « تاريخ دولة الأتابكة ملوك الموصل » . وقام على إخراجه المستشرق الفرنسي « دى سلاين » .

وقد قمنا نحن على إعداده للنشر مرة أخرى لأسباب ، أهمها :

أولا : ندرة الكتاب المطبوع في المجموعة الفرنسية . فقد طبع الكتاب في باريس سنة ١٨٧٦ ، أي منذ حوالي قرن من الزمان ، ولا يوجد منه سوى نسخ قليلة جدا في دار الكتب المصرية والمكتبة العامة لجامعة القاهرة ، فهو لذلك قليل التداول بين المهتمين بدراسة الأسرة الزنكية (أو الأتابكية كما يسميها ابن الأثير) .

ثانياً : بالرغم من أن المستشرق الفرنسي « دى سلاين » بذل مجهودا لا بأس به في تهذيب « النص » وتصويب ألفاظه وتحقيق أخباره ، فإننا لاحظنا — عند مقابلة نسخته على النص المخطوط — ما يلي :

١ — خطأ « دى سلاين » ألفاظا صحيحة في النص ، واستبدلها بألفاظ أخرى ، بعضها بعيدة عن المعنى المقصود في العبارة ، وبعضها الآخر لا لضرورة لتغييرها ، مثال ذلك :

- تتضام : تتصل . فى عبارة النص (١) : وحاله من القرب تتضام (فى النص تتضام) دونها درجات المقربين (ص/١) .
- شكواه : شكواته . فى عبارة النص : فلقية صبي ديلى مستغيثا به فقربه منه لسمع شكواه فقتله (ص/٩) .
- توضاً : توضوا . فى عبارة النص : وكان من جملة عباداته أنه لم يُجِدْثْ إلا توضاً (ص/٩) .
- وعزلتك : وأزمتك . فى عبارة النص : وإن كنت وزيرى فاسلك ما يسلكه الوزراء وإلا أطبقت دواتك وعزلتك (ص/١٠) .
- المصانع : الصنائع . فى عبارة النص : وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البركثيرا ، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة (ص/١١) . (والمصانع هى ما يخزن فيها الماء) .
- طرف : طريق . فى عبارة النص : وهو الذى بنى منارة القرون فى طرف البرما يل الكوفة (ص/١١) .
- وأرضت : وعرضت . فى عبارة النص عن وفاة السلطان ملكشاه : ولم يجلس أصحابه للعزاء سـواه ، وأرضت زوجته العسكر وحلقتهم لولدها محمود (ص/١١) .
- ليملكه : ليملكها . فى عبارة النص : وكان جاولى قد عبر إلى الشام ليملكه . (ص/١٧) .
- فبايعه : فبايعوه . فى عبارة النص : فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء . (ص/٢٢) .
- فليكن : فليكون . فى عبارة النص : إذا أراد الإنسان أن يضع على رأسه حجرا ، فليكن من جبل كبير (ص/٢٧) .
- أمثالها : أمثالهم . فى عبارة النص : والتركان تقول فى أمثالها . (ص/ ٢٧) .
- نازلها : بان لها . فى عبارة النص : فلما نازلها الشهيد سارحسام الدين (ص/٣٦) .

- الحصن : القصر . فى عبارة النص : وكان هذا الحصن أضرشئء على أهل حلب (ص/ ٣٩)
- ابتغى : يبتغى . فى عبارة النص : فلم ينبج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملا، أو ابتغى بالاختفاء بين القتلى مؤثلا . (ص / ٤١) .
- الهواء : الهوى . فى عبارة النص . وأكثر من إرسال السهام وحجارة المجانيق حتى كادت تحجب الهواء . (فى النص أيضا : الهوى) (ص / ٦٠) .
- بأدى المعالم : يا ذى المعلم . فى بيت الشعر : بأدى المعالم أطرقت شرفاته
إطراق منجذب القرينة عان (ص/ ٦٠)
- الخدمة : خدمتك . فى عبارة النص : أننى بلغنى أن ولدى فارق الخدمة (ص / ٦٥) .
- شوهدت : شاهدت . فى عبارة النص : فلوشوهدت وقعاته لم تذكروقة الهباه (ص/ ٧٥)
- تسلطهم : تسلطهم . فى عبارة النص : لأنه رأى من تسلطهم على السلطان (ص/ ١١٥)
- دبر ، وقدر : دبروا ، وقدروا . فى عبارة النص : وكان الأمر على مادبر، والحال على ما قدر (ص/ ١٢٤)
- الشهادة : العبادة . فى عبارة النص : وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى . (ص/ ١٢٧)
- لتنقذهن : لتنقذهن . فى عبارة النص : هذه شعور نسائى من قصرى يستغن بك لتنقذهن
من الفرنج . (ص / ١٣٨) .
- الخشوع : الخضوع . فى بيت الشعر : جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب فى المحراب (ص / ١٦٥)
- للفسوق : للفسق . فى عبارة النص : وللتقى شروق ، وما للفسوق سوق (ص/ ١٧٤)
- سألفه : سابقة . فى عبارة النص : وكان رجلا كبيرا له خدمة سألفة (ص/ ١٨٦)
- فلم يعلم : فلم علم . فى عبارة النص : فبلغ الخبر إلى مجاهد قايماز فلم يعلم بخدومه
نور الدين الخبر (ص / ١٩١)
- أودعت : أوضعت . فى عبارة النص : وقد أودعت الكتب غدراتهم فهى باقية إلى
يوم القيامة . (ص / ١٩٥)

لداته : لذاته
أشغال : الاشغال

في بيت الشعر : ساد الملوك لسبع عشرة حجة
ولداته إذ ذاك في أشغال (ص / ٢٠٢)

سحره ونحره : شجره ونجره . في عبارته النص : ولم يزل في حجره ، وبين سحره ونحره . (ص / ٢٠٢)

هذا قليل من كثير من ألفاظ النص التي استبدلها « دى سلين » بغيرها من غير ضرورة تدعو لذلك ، ولم نشأ أن نذكرها في حواشي النص لئلا نثقل على المتن ، وإنما اكتفينا بإيراد الألفاظ التي أثبتناها هنا على سبيل التمثيل فقط .

٢ — وقف « دى سلين » في ضبط بيت الشعر :

تلك المسكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا
فقد ورد في النص ثراً ، هكذا : هذه المسكارم لافعتا ب لين شبا بما فعادوا بعد وأبوالا . فأثبت في طبعته ثراً وبأخطائه (ص / ١١٨) .

وكذلك وقف في ضبط البيت :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
وقد ورد الشطر الأول من البيت في « النص » : وليس الله بمستنكر . فأثبت « دى سلين » :
كما ورد في النص . (ص / ٢٠٤) .

كذلك حرف البيت :

فاسم الغمام لديه وهو كههور آل وأسماء البحار جداول
فأثبت الشطر الأول من البيت : . قسم الغمام لديه وهو كههور (ص / ١٥٠) .

٣ — أسقط « دى سلين » بعض المعلومات من بعض الأخبار ، كذلك أسقط نسب الخليفة المستظهر بالله كله ، وقد أشار هو إلى أنه أسقطه عن قصد ، لأنه لا يتصل بالموضوع الذي يهمه ، وهو أخبار الحروب الصليبية (١) . كذلك أسقط عن عمد خبر يتعلق بقسيم الدولة آقسنقر البرسقي (٢) .

أما العبارات التي سقطت من طبعة « دى سلين » سواء كان عن عمد أم عن غير عمد :

١ — « وقالوا [له] إنه يأخذ أموالك فيتصرف بها فلم يمكنه أن يغير عليه » (٣) .

٢ — « يؤتى الملك من يشاء وينزعه من يشاء يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (١) .

٣ — « وكان له سردار بالموصل يكون معه مفاتيح داره فبالغه أن ولد السردار قد شرق » . فأسقط من هذه العبارة كلمات حرقت الخبر ، فجاءت : وكان له سردار قد سرق (٢) .

٤ — كذلك خطأ « دى سلين » بعض التواريخ والمعلومات رغم صحتها في النص :

(١) ورد في « النص » ، أن صاحب غزنة من أولاد محمود بن سبكتكين قتل أرسلان بيغو بن سلاجق . فأبدل « دى سلين » اسم محمود ، بـ محمد (٣) . وهذا خطأ ، لأنه لم يحكم غزنة أحد من أولاد محمد ، وكان الحكم فيها لعقب غيره .

(ب) ورد في « النص » أن مسير عز الدين مسعود لحصر جزيرة ابن عمر كان في سنة ٥٨٧ ، فأبدل « دى سلين » السنة ، بسنة ٥٨١ (٤) .

ورد في « النص » ، في خبر بني منقذ أصحاب شيزر ، « فأولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور » فأبدل « دى سلين » اسم ، أبو سلامة ، بأبي أسامة (٥) .

وبرغم هذه الملاحظات ، فإننا لا نغني أن محمود « دى سلين » كان ضئيلا ، وإنما بذل مجهودا يشكر عليه نجاح في بعضه ، وفشل في بعضه الآخر .

وأود هنا أن أقرر ، أن « دى سلين » وفر على وقتنا كان لابد أن أنفقه في البحث عن معلومات عن ناسخ المخطوطة ، فإن الناسخ لم يذكر اسمه ولا تاريخ نسخه للمخطوطة ، كذلك دلتني على المراجع التي نقلت عن « الباهر » والتي لابد للرجوع إليها لتهذيب ألفاظ النص ، وتوضيح ما فيه من غموض .

أما ناسخ المخطوطة ، فقد قال عنه « دى سلين » إنه مسيحي ماروني ، ويؤيد « دى سلين » مسيحية الناسخ ، بأسقاطه عبارات الثمن المتصلة بالعقائد الإسلامية ، ويعني « دى سلين » ما أسقطه الناسخ من التصليية على النبي فترك مكانها بياضا (٦) . واستدل الناشر ، على أن الناسخ ، ماروني ، من جمال خطه « الذي فيه خصائص الانتظام والأناقة التي هي من مميزات الخط الماروني » . ثم يذكر الناشر ، أن الناسخ كان من رجال أواخر القرن السابع عشر الميلادي . ونحن لا نستطيع معارضة « دى سلين » أو تأييده فيما ذكره عن الناسخ ، إلا في حالة واحدة ، وهي مسيحيته ، فإننا نؤيده في هذا ، لإسقاطه التصليية على النبي . أما ما عدا هذا فإننا نقف منه موقف المحايدين .

ويذكر « دى سلين » . عن الناسخ ، إنه يجمل قواعد اللغة العربية ، ولا يفهم شيئا في الشعر والنثر . كذلك لا يفهم الأسلوب الصحيح للغة ، بالإضافة إلى أنه لم يكن على حظ من التعليم يمكنه من فهم

(١) ص/١٣٧ (من النص) . (٢) ص/١٩٩ (من النص) . (٣) ص/٩ (من النص) . (٤) ص/١٨٤ (من النص) . (٥) ص/١١٠ (من النص) . (٦) ص/١ (من النص) .

نص المخطوطة فهما تاما ، لذلك ارتكب كثيرا من الأخطاء عندما كان ينسخ القطع التي كان لا يفهمها ، كذلك حذف بعض الكلمات وكثيرا من العبارات من النص ، وأخطأ في أسماء الأماكن الواردة في النص ، فبعض هذه الأخطاء نتيجة الجهل ، وبعضها الآخر نتيجة الإهمال . وقد بالغ « دى سلين » في تجريح الناسخ ، ونحن قد أشرنا إلى أخطائه في حواشي النص . وهي أخطاء معظمها ناتج عن عدم دقته في تنقيط الحروف .

ثم يذكر الناشر عمله في إخراج النص ، والمجهود الذي بذله في تهذيبه وتحقيقه ، فيقول ، إنه لمعرفته بخصائص قواعد اللغة العربية ، ولدراسته الأساليب الصحيحة لكبار النashرين ، ولمعرفته بالشعر استطاع أن يعالج أخطاء النص . وهذه مبالغة من الناشر في تقدير نفسه ، وما ذكرناه عن تصرفه بألفاظ النص ، يدل على عدم تمكنه من اللغة بالمقدار الذي يقدر به نفسه ، بالإضافة ، إلى أنه هو نفسه يقرر أنه وقف عاجزا عن معالجة بعض ألفاظ النص الغامضة أو الخاطئة ، فأثبتها كما هي ووضعها بين حاصرتين .

ثم يذكر الناشر المراجع التي رجع إليها في تنقيح النص ، وهي :

- ١ — الروضتين في أخبار الدولتين ، لأبي شامة .
- ٢ — السكامل في التاريخ ، لابن الأثير .
- ٣ — تاريخ ابن خلسكان . (وفيات الأعيان) .
- ٤ — الموسوعات الجغرافية وكتابات المؤرخين العرب . (من غير تحديد) .

المخ ————— طوط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ذي النعم الباهرة والآلاء الظاهرة والمن
الزاهر الذي امن على عباده وتمليك الملوك وقامير
الامراء فجعلهم شبيهاً لك القوي عن الضعيف والخذ
للشرف من الشريف تحسنه علي ما التزم فاجرب
واحسن فافضل وصلي على

اما بعد والذی غفرنا

من انعام هذه الدولة العزیزة القاهرة والایام الامناکبة
الزاهرة وشملنا من احسانها وانا الشان من عز سلطانها
فقد استخرجت وطایح خیر وطایح خیر وطایح خیر في الافاق
وتخذت شبه الرفاق لوجيل من مین یسديها ونعت
توليها ودرجتها في العلا يرفع تصبغنا اليها وعتبة

اختيال العروس ورفلت من صايبا رأيد في الحزن ليوم وانتحر
به دهره على سائر الدهور

• اذا نحن اثينا عليك بصلح فانته كاتفي وفوق الذي ينبغي
• وان جرت الالفاظ يوما بوجه فترك اناسا فانته الذي ينبغي
• هذه نبتة يسيه من محاسنه يلقى بهذا الحتم قطره من بحر
• مكارم تنسب هذا المعتد لو اوردتها مفضله لخرجا عما
• اعتدناه وتركنا ما قصدناه ونحن انشاله تعالى بناحي
• على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ وانته
• الموقف للصواب وهو حسينا ونفسه

• الوكيل والحمد لله

• ولي علي سيدنا محمد وآله

• وصحبه الابرار وسلم

• تليما كيرا

